للصحوة أسري من بين دياجير السخط» (ص ١٧٦). تلتقي سحر في مثل هذه الكتابة الشعرية الواعية مع بطلها الذي ترفضه في المنطق العام لروايتها، بل يمكن أن نقول: إن هذا اللقاء الملتبس، هو الذي دفع الكاتبة إلى إنهاء حياة «بطلها» في معركة غير ضرورية، أي قادها إلى إلباسه فعلاً روائيا بلا دلالة، فـ «أسامة» يذهب شهيدا، واستشهاده لا يعود نظريا إلى المعركة التي خاضها، لأن موته مكتوب فعلاً في قصور وعيه، وسواء «استشهد هذا البطل أم لم يستشهد» فإن دلالته الروائية لا تكتسب جديدا، فحركته هي حركة إخفاقه ونجاحه المستحيل. إن التباس موقف الكاتبة من شخصيتها هو الذي أفضى بها إلى إلغائها، والالغاء هنا هو هروب من جواب أكثر منه إجابة على سؤال. أكثر من ذلك، إن إجابة الرواية على أسئلة شخصيتها تظل غائبة. والغياب، هنا، يعني عدم القدرة على الاجابة، وبسبب ذلك فإن منطق الرواية الداخلي يحكم بـ «الموت – الفشل» على أسامة، أما الكاتبة فتتماثل به حينا، ثم تتخلص منه فيما بعد، أي أنها تحاول أن تكون محايدة.

تنزع سحر الى هذا الحياد الواهي بـ «ضباب الوعي»، حينما تتعامل مع شخصية أخرى: «عادل»، فهذه الشخصية كما رسمتها الكتابة الروائية تمثل الوعي الموضوعي، أو الفلسطيني الذي يحاول موازنة عناصر المعادلة كي يصون ذاته ويظل عنصرا فاعلاً في النضال اليومي، مع ذلك فإن سحر تعطي بطلها ثم تهرب منه، أو لنقل إنها تهرب منه حينما لا تكمل كتابته، أو تمنع عنه بعض سماته القاتمة فيه، التي تلمحها القراءة، وإن حجبتها الكتابة. وفي حيادها الملتبس تذهب الكاتبة نحو «باسل»، «أمل المستقبل» الذي يظهر في نهاية الرواية كلحظة تبشيرية ايديولوجية، امتداد آخر لـ «أسامة»، أي أن «أمل المستقبل» متخلف عن «عادل» موضوعيا، ولن يصل إلى وعي يستطيع التعامل مع الواقع إلا بعد أن يَعْبُر التجربة الضرورية، وهذا ما ستقوله رواية سحر التالية: «عباد الشمس». إن اختيار الكاتبة لحظة المستقبل موئلاً، لا يعبر عن تفاؤل مفتوح بقدر ما يعبر عن قلق في الحاضر، وضياع في الخيارات، أي أن المستقبل مهرب ذاتي، ونقطة يتكىء عليها الوعي حتى يعثر على ذاته.

إذا قرأنا وعي كاتبة «الصبار» في قفزاته المستمرة، و «توازنه الحرج»، فإننا نجد أن هذا الوعي يعتمد، في مقاربته للواقع، على ثنائية مستمرة، تقبل بجزء من الواقع وترفض جزءا آخر، أو لنقل إنها ترى في ذات اللحظة (الشخصية) عنصرين متوازيين، أحدهما سيء والآخر جيد، وهذا يعني أنها لا ترى تناقض الواقع بل ترى الواقع بشكل متناقض. كيف يتم ذلك؟

بعد أن تصف الكاتبة «الوجه الايجابي» في الاحتلال – يُسرُ العاملين في المصانع الاسرائيلية – تعود لتصف، فيما بعد، وجهه السيء، تقول في وصف الوجه «الأول»:

– «نحن الآن نعيش كما تعيشون أنتم يا أولاد الوجاهات» (ص ٥٣).

– «مسحت دموعها بكفيها فتلألأت الأساور الذهبية في معصميها [أم صابر] وخشخشت» (ص ٦٢).